١٠ ـ تفسير الأحلام

للعلامة سجموند فرويد

سلسلة محاضرات ألقاها فى فينا

للأستاذ محمد جمال الدين حسن

الرموز فى الأحلام :

ولكن يجب أن لا تظنوا أن هذه الرموز سهلة الاستعمال أو سهلة الترجمة فنحن أينما تلفتنا عثرنا على ما لم نكن نتوقع . فقد لا تصدقوا مثلا أنه لا يوجد فى الغالب حد فاصل بين الجنسين فى هذا التمثيل الرمزى ، فكثير من الرموز تقوم مقام الأعضاء الجنسية على العموم ، سواء أكانت للذكر أم للأنثى مثل طفل « صغير » أو ابن أو ابنة « صغيرة » كما أننا قد نجد فى حالات أخرى أن أحد الرموز التى تشير فى الغالب إلى عضو جنسى مذكر قد استخدم فى هذه الحالة للدلالة على عضو مؤنث أو بالعكس . وهذا القول قد يظل غير مفهوم حتى نستطيع أن نحصل على بعض المعلومات عن نضوج التفكير الإنسانى فيما يختص بالعلاقات الجنسية ، فهذا الغموض قد يكون فى كثير من الأحيان غموضاً ظاهرياً فقط وليس حقيقياً ، وعلاوة على ذلك فإننا نجد أن أشد هذه الرموز لفتاً للنظر مثل الأسلحة والجيوب والصناديق لا تستخدم أبداً للدلالة على الجنسين .

والآن دعونى أقدم لكم بياناً موجزاً مبتدئاً بالرموز نفسها بدلا من الأشياء التى ترمز إليها ، لأطلعكم على المصادر التى اشتقت منها هذه الرموز الجنسية فى الغالب ، وسأضيف إلى ذلك بعض الملاحظات خصوصاً عن تلك الرموز التى يصعب فيها تحديد وجه المقارنة بينها وبين الأشياء التى ترمز إليها « فالقبعة » مثلا أو أغطية الرأس على العموم تعتبر من الرموز القاتمة ، وهى فى العادة رمز مذكر وإن كانت تجىء من الحين للحين كرمز مؤنث . و « المعطف » بالمثل يدل على رجل ولو أنه قد يدل فى بعض الأحيان على الأعضاء الجنسية عموماً من غير تمييز ، ولكم

ويعود لسان الدين — وهو لا يدرى بما حدث ، ونجتمع الفقهاء والعلماء يقررون مصير لسان الدين . ولا بد من الفتيا وقد أقام لسان الدين ينتظرها فى السجن الذى زجوه به حتى إذا جاءته كانت تحتم قتله .

عرف لسان الدين أن الأمر قد تم ، وأن السهم قد نفذ ، وأن لا مرد لأمر الله ، فحنّ من بين مصائبه وآلامه وإحنه وسلاسله وأغلاله إلى نظرة فى كتبه ، وإلى كلمات يريد أن يضيفها على آخر كتاب لما يكمله . وتلهف إلى جامع غرناطة وجامعتها ، حيث كان يلقى دروسه قبل أن يقرر كفره .

وقطع هذه التأملات جلجلة السلاسل ، وجاءه قوم غلاظ يحملون المشاعل يتقدمهم رجل فيه بسطة فى الجسم لا قبل للسان الدين وهو فى الثالثة والستين من العمر بمثلها . تقدم هذا العملاق من السياسى الشيخ الفيلسوف الطبيب العالم الفقيه الشاعر الأديب يزيح لحيته التى وخطها الشيب ، فلم يبق من سوادها إلا ما بقى من سواد تلك الليلة .. يزيح لحيته ليمهد لقبضته الخشنة القوية من عنقه مكاناً يخنقه منه ، ووضع ركبته على صدر الرجل وأخذ عنقه وتحسس فيه البلعوم فقبض عليه قبضة شديدة منكرة تزايلت لها وتلاينت وتقلص وجه الرجل واختلفت سحنته ورفس من احتباس النفس رفساً شديداً فما رحمه . واحتقن الدم احتقاناً مروّعاً وجحظت عيناه جحوظاً غريباً كأنها تفتش عن الكفر الذى رمى به ... ثم تخافتت نفسه ... وفاضت روحه التى ملأت الأندلس أدباً وعلماً وفناً

وزفت بشرى خنقه إلى من حكم بقتله ، فأمر بإخراج جثته وإحراقها علناً ... وهكذا كان ... فما بقى للسان الدين غير اسم عظيم وتراث خالد .

وعرفت ابنة أخى لسان الدين هذا ... فاقشعت بالبياض حداداً (١) ... وخرجت هى وأترابها حيث أحرق ... وهناك قرأت عليهن قوله :

لم يكن وصلك إلا حلماً ... فى الكرى أو خلسة المختلس

وأسكبت على الأرض التى قد يكون فيها شىء من رماده دمعات من مقلة زرقاء .

منية الكيلانى

(١) حداد الأندلسيين البياض ، وحداد المشارقة السواد .

أن تتساءلوا عن السر فى هذا . أما « ربطة الرقبة » فباعتبارها شيئاً يتدلى إلى أسفل ولا ترتديه النساء فهى بلا شك رمز مذكر بينما « الملابس الداخلية » أو «الكتان» على العموم يمثل الأنثى . و « الملابس » و « البزة الرسمية » كما قلنا تمثل العرى أو جسم الإنسان . و « الأحذية » (والشباب) تمثل الأعضاء التناسلية الأنثى . و « الوائد » و « الخشب » قلنا عنها إنها رموز محيرة ولكنها مع ذلك رموز مؤنثة ؛ ومن المحقق أن « عملية تسلق » السلالم أو الأماكن الوعرة عبارة عن رمز للعملية الجنسية . وقد نلاحظ إذا دققنا النظر أن اطراد النغم أثناء التسلق هو النقطة المشتركة بين العمليتين ، وربما أيضاً ازدياد اللهفة الذى يصحبهما، واحتباس النفس كلما أوغل المتسلق فى الصعود .

رأينا أن « الأصقاع » تمثل الأعضاء التناسلية للأنثى ، والجبال والصخور عبارة عن رموز للقضيب . و « الحديقة » وهى رمز يتكرر ظهوره باستمرار تشير إلى الجهاز التناسلى للأنثى بينما « الفاكهة » تقوم مقام النهود لا الطفل . « والحيوانات المتوحشة » تدل على الأشخاص المنفعلى الحواس ومن ثم على الدوافع الشديدة والمواطف الآثمة . و « الغور » و« الأزهار» تمثل الأعضاء التناسلية للأنثى ، وعلى الأخص وهى عذراء . وبهذه المناسبة أذكركم بأن النور فى الحقيقة عبارة عن أعضاء التناسل فى النبات .

ونحن نعلم من قبل كيف تستعمل الحجرات كرموز ، وقد نستطيع أن نتوسع قليلا فى هذا التمثيل فنقول إن : « النوافذ » و « الأبواب » (وهى المداخل إلى الحجرات والمخارج منها) قد تعنى فتحات الجسم ، ومما يتفق مع هذا التمثيل الرمزى أن الحجرة تكون « مفتوحة » و « مغلقة » . والمفتاح » الذى يفتحها هو من غير شك رمز للقضيب .

هذه مادة لا بأس بها تصلح لدراسة الرمزية فى الأحلام ، وهى ليست مادة كاملة ، فقد نستطيع أن نتوسع ونتعمق فيها معاً. ولكنى مع ذلك أظن أنها قد تبدو لكم أنها أكثر من اللازم وربما لا تجوز لديكم القبول فيتساءل الواحد منكم قائلا : « أترانى حقاً أعيش وسط رموز جنسية ! ؟ أكل هذه الأشياء التى تحيط بى ، والملابس التى أرتديها ، والأدوات التى أستعملها عبارة عن رموز جنسية دائماً ولا شىء غير ذلك ؟ » . وهناك فى الواقع أسباب وجيهة تدعو إلى هذه الدهشة والتساؤل ، وقد يكون أول هذه الأسباب هو : كيف ندعى أننا استطعنا الوصول إلى معنى هذه الرموز التى تظهر فى الأحلام فى الوقت الذى نقول فيه إن الحالم نفسه لا يستطيع أن يمدنا عنها بمعلومات تذكر ؟

وجوابى على ذلك أننا نستق معلوماتنا من مصادر كثيرة مختلفة : نستقيها من الأساطير والخرافات ، والملح والنوادر ، وقصص الأولين ، أى نستقيها مما نعرف عن أقوال وأغانى الشعوب المختلفة والعادات والأخلاق التى كانوا عليها ، ومن طريقة استخدامهم للغة فى الشعر وفى الكلام الدارج . ففى كل من هذه المجالات المختلفة نعثر على نفس الرموز ، وقد نستطيع فى كثير منها أن نقف على المعنى المراد فى غير حاجة إلى دراسة سابقة لها . فإذا نظرنا إلى هذه المصادر المختلفة كل على حدة فسنعثر على كثير من الرموز التى تطابق ما يظهر فى الأحلام مما يضطرنا إلى الاقتناع بصحة طريقتنا فى التفسير .

قلنا إن جسم الإنسان كما يقرر « شرتر » كثيراً ما يرمز إليه فى الأحلام بمنزل ، فإذا توسعنا فى هذا التمثيل الرمزى قليلا ، فإن النوافذ والأبواب والبوابات تقوم مقام فتحات الجسم ، والجدر كما قلنا إما أن تكون ناعمة ملساء ، أو تحتوى على بروز وشرفات تصلح للتعلق بها . وهذا التمثيل الرمزى نفسه تراه فى اللغة الدارجة ، فنحن مثلا نتكلم عن « سقف من الشعر » ، كما إننا نقول عن شخص ما إن « طابقه الأعلى » ليس على ما يرام(١) . وفى علم التشريح كذلك تسمى فتحات الجسم « بالبوابات »(٢)

وقد ندهش لأول وهلة عندما نجد أن الآباء والأمهات يظهرون فى أحلامنا كملوك وملكات ، ولكننا نجد شبيها لهذا فى (الحواديت) . ألا نشعر عند ما نسمع كثيراً من (الحواديت) التى تبدأ بالكلمات : « يحكى ذات يوم أن ملكا وملكة » أنها

(١) الزميل القديم يلقب فى ألمانيا «بالبيت القديم» (altes Haus) والاصطلاح « ضربة واحدة على سقفه » (einem aufs geben) يقابل عندنا الاصطلاح « ضربه على أم رأسه » .

(٢) الوريد « البابى » يحمل الأغذية من الأمعاء إلى الجسم عن طريق الكبد . و « البواب » (pyrolus هو المدخل إلى الأمعاء الدقاق كما أن فتحات الجسم تسمى باللغة الألمانية Leibespforter ومعناها الحرفى هو « بوابات الجسم » .

تعنى بكل بساطة « يحكى ذات يوم أن أبا رأسا . » ؟ كما أننا نجد الأطفال فى الحياة العائلية يلقبون بالأسماء على سبيل المزاح ، والأكبر فيهم يلقب بصاحب السمو . والملك نفسه يدعى أبا الشعبة ، وكذلك نجد الأطفال فى كثير من الممالك يتحدث الناس عنهم كحيوانات صغيرة ، فيقولون مثلا : « ضفدع صغير » أو « حشرة صغيرة » كما فى ألمانيا .

والآن دعونا نعد مرة ثانية إلى التمثيل الرمزى بالمنزل . إذا كنا فى أحلامنا نتخذ من البروز التى فى المنازل حوامل نتعلق بها ألا يذكرنا هذا بقول عامى معروف جدا فى اللغة الألمانية للدلالة على المرأة ذات الصدر الناضج وهو : « لأن لها شيئاً يستطيع المرء أن يتعلق به »[1] (Die hsf efwas zkm anhalfen) بينما هناك قول عامى آخر للدلالة على نفس المعنى وهو : « أن هناك كثيراً من الخشب أمام منزلها » . (Die haf viel holz vovdem hanse) كأنما كان هذا القول على بالنا عند ما قلنا فى تفسيراتنا إن الخشب يرمز إلى المرأة أو الأم .

وهناك شىء آخر يجب أن يقال بخصوص الخشب ، فليس من السهل أن نرى على الفور كيف صار استخدامه للدلالة على المرأة أو الأم ، ولكن المقارنة بين عدة لغات قد تفيدنا فى هذه الحال . يقال إن الكلمة الألمانية holz (خشب) مشتقة من نفس المصدر الذى اشتقت منه الكلمة الإغريقية التى معناها المادة الخام . وهذا مثل لعملية ليست نادرة الحدوث ، وهو أن اسماً يدل على المادة على العموم قد صار استخدامه أخيراً للدلالة على مادة معينة فقط . والآن لعلكم تعرفون جزيرة « مادييرا » (Madeira) التى تقع فى المحيط الأطلنطى والتى أطلق عليها البرتغاليون هذا الاسم عند ما اكتشفوها لأنها كانت فى ذلك الوقت مغطاة بغابات كثيفة ، إذ أن كلمة Madeira فى اللغة البرتغالية معناها الخشب . ولكنى أحسبكم لن تغفلوا عن أن تلاحظوا أن كلمة Madeira ما هى إلا صورة منقحة من الكلمة اللاتينية Madeira التى تدل أيضاً على المادة عموماً . ولكن Madeira مشتقة من Mafer ومعناها الأم . والمادة التى يصنع منها أى شىء يمكن أن ينظر إليها على أنها قد تسببت فى ولادة هذا الشىء . وعلى هذا فنحن فى استخدامنا الخشب كرمز للدلالة على المرأة أو الأم إنما نحيى هذه الفكرة القديمة .

والولادة يعبر عنها غالباً بأشارة إلى الماء ، فأما أننا نغوص فيه أو نخرج منه ، أى أننا نلد أو نولد . وهذا الرمز يجب أن لا ننسى أنه يشير إشارة مزدوجة إلى الحقائق الثابتة فى نظرية التطور . فالكائنات البرية ، التى نشأ عنها الجنس البشرى ، لم تهبط من كائنات تسكن الماء فحسب ، بل إن كل كائن حى ، قد أمضى الفترة الأولى من حياته فى الماء — أى كجنين فى السائل الأمنيونى الذى يملأ رحم الأم — وبذا يكون عند الولادة قد خرج من الماء . وأنا لا أقرر أن الحالم على علم بشىء من ذلك ، بل إننى على العكس أصرح لكم أنه لا حاجة به إلى هذا العلم ، فهو فى الغالب يعلم شيئاً آخر مما كان يحكى له وهو طفل ، ولكنى أقرر كذلك أنه حتى هذا لا دخل له فى تكوين الرموز . فالطفل تقول له مربيته إن طائراً كبيراً (أبو حديج) هو الذى يقوم بإحضار الأطفال ، فإذا سأل : ومن أين يأتى بهم ؟ قيل له من البئر أو من (الفسقية) أى من الماء مرة أخرى . وقد حدث لأحد مرضاى الذين قيلت لهم هذه الحكاية وهم أطفال (وقد كان فى هذا الوقت « كونتاً » صغيراً) أن اختفى طيلة بعد الظهر وأخيراً وجد راقداً على حافة البحيرة التى فى القصر وقد انحنى وجهه الصغير على صفحة الماء الرائعة وأخذ يحدق فى لهفة عله يستطيع أن يلمح الأطفال الذين فى قاع الماء .

وفى الأساطير التى تروى عن ولادة الأبطال ، وقد قام «أو . رانك» (O. Knka) بدراسة وافية لها ، نجد أن التعرض للماء والنجاة منه يلعبان دوراً كبيراً . وقد أدرك « رانك » أن هذا يرمز إلى الولادة بطريقة شبيهة بالطريقة المستخدمة فى الأحلام . فالشخص الذى يرى فى الحلم أنه ينقذ أحداً من الماء ، يجعل هذا الأحد أماً له ، أو أماً على أية حال . وفى الأساطير نجد أن من تنقذ طفلا من الماء تعتبر نفسها أمه الحقيقية . وهناك نادرة تروى عن طفل ذكى من بنى إسرائيل ، وهى أنه عند ما سئل من تكون أم موسى ، أجاب على الفور : « الأميرة » . فقيل له : « كلا إنها التقطته من الماء فقط » . فأجاب : « هذا ما تقوله هى » . وقد دل بذلك على أنه قد وقع على التفسير الصحيح للأسطورة .

(يتبع) محمد جمال الدين حسنه

(١) ونحن فى الواقع نقول : « فلان متعلق بفلانة » فكأنما الحلم يجسم هذه الفكرة .